العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية

(بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقا)

د. أحمد عبد المجيد محمد خليفة

كلية الآداب - جامعة عمر المختار

رأى بعضُ العلماء أن القرآن الكريم أورد أحد جزأي الجملتين في نهايات بعض آياته على غير الوجه الذي أورد نظيرها من الجملة الأخرى في الاسمية، والفعلية، من أجل رعاية الفاصلة، أو إحداث الموسيقا السجعية، كقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. فلم يطابق بين قولهم: (آمَنَّا)، وبين ما ورد به، فيقول: (لم يؤمنوا) أو (ما آمنوا) لذلك.

ـ ونحوه قوله تعالى ـ أيضاً ـ من سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. فقال: (وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين) ولم يقل (الذين كذبوا).

ـ ونحوه قوله تعالى من سورة البقرة أيضاً: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، ولم يقل: (وأولئك الذين اتقوا).

والباحث لا يتفق مع هؤلاء العلماء الأفاضل فيما ذهبوا إليه من أن يكون التنوع الأسلوبي بين الجمل، وعدم مطابقتها في الاسميَّة والفعلية في نهايات هذه الآيات السابقة، وغيرها ـ يكون دافعه النغم الموسيقى فحسب، وإن كان لا يغفل هذا الجانب الموسيقي الرائع في توضيح المعنى، وحسن استقبال المتلقي له؛ إذ إن كلَّ صيغة منها وردت في موضعها الصحيح لتفيد معنىً أراده الله (عز وجل) في موضعها، ولا يمكن لنا ـ نحن البشر ـ تغيير صيغة وردت في القرآن، أو نستبدلها بصيغة أخرى، وإلا اختل المعنى المراد؛ فالقرآن الكريم استخدم هذه الصيغ: فعلية كانت، أم اسميَّة، استخداماً فنيًّا رائعاً لم يسبق له مثيل، وفي غاية الروعة والجمال أيضاً، استخداماً يفصح به عن إعجازه البنائي، والبياني الذي لا يماثل على مر العصور إلى أن تقوم الساعة.

وبداية قبل أن نفصح عن وجهة نظرنا تجاه هذه القضية الشائكة، كان لزاماً علينا أن نُذكِّرَ، وننبه على القاعدة النحوية والدلالية، التي تشير إلى أن صيغة الفعل تدل على الاستمرار والحدوث والتجديد، بينما صيغة الاسم تدل على الثبوت والاستقرار. فعندما نقول مثلاً: يتعلم عمارٌ العلم. فالفعل المضارع (يتعلم) يدلُّ على حدوث التعلم واستمراريته، وتجدده. أي أن عماراً لا يزال مستمراً في علمه، ولم ينته بعد من التعلم. أما إن قلنا: عمار عالم.

فاسم الفاعل (عالم) هنا دلَّ على ثبوت العلم في عمار واستقراره، أي أن عماراً انتهى من مرحلة التعليم، واستقر العلم فيه، فأصبح عالماً

ومثله قولنا: (بلال يجتهد، وهو مجتهد). فالفعل (يجتهد) يدل على الحدوث والتجدد في عملية الاجتهاد، بينما (مجتهد) فإنه يدل على ثبات الأمر واستقراره في بلال.

وقد يعبر بالصيغة الاسمية على شيء لم يحدث بعد، أي ما زال فكرة، ولم تأخذ موضع الفعل الحقيقي، أي في طور الحدوث، وذلك للدلالة على أن هذا الشيء غير الواقع قد وقع وحدث، وثبت بالفعل.

ونذكر من ذلك ما ورد في الأسلوب القرآني، قوله تعالى للملائكة في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فقد قال الله (عزّ وجلّ): (جاعل) بصيغة اسم الفاعل، للدلالة على أن الأمر حاصل، وواقع لا محالة، وكأنه حدث، وثبت واستقر، وتم بالفعل، في حين أنه لم يحدث الفعل في وقت الحديث. أي أنه سبحانه وتعالى لم يكن قد جعل خليفة في الأرض قبل الحديث. ولم يعبر عن ذلك بالفعل.

(سأجعل) أو (سوف أجعل) في الأرض خليفة، لأن الأمر ما زال في الشروع. ولكنه عبر عن ذلك بالاسمية، فقال (جاعل) للدلالة على أن الأمر حاصل وواقع لا محالة، ولا مجال للمناقشة فيه، وكأنه حدث، وتم، واستقر، وثبت. على سبيل المجاز، فهي صورة استعارية، تصريحية، تبعية، وقعت في زمن الفعل.

ـ ونحوه قوله تعالى مخاطباً سيدنا نوح (عليه السلام) في سورة هود: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾؛ فقد عبر سبحانه وتعالى هنا بالصيغة الاسمية، التي تدل على الثبوت والوقوع، فقال:

(إنهم مغرقون)، ولم يقل: (إنهم سيغرقون) أو (سأغرقهم) بالصيغة الفعلية. لماذا؟ للدلالة على أن الأمر وقع وثبت وانتهى، ولا مجال فيه للشك أو المناقشة.

ونحوه ـ أيضاً ـ قوله تعالى في قوم لوط (عليه السلام) من سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

فعبر الأسلوب القرآني على لسان الملائكة المرسلين لإبراهيم (عليه السلام) بالصيغة الاسمية: (إِنَّا مُهْلِكُو)، ولم يقل: (إنا سنهلك) للدلالة على ثبات الأمر وتمامه، ووقوعه لا محالة[1].

وعلى هذه الشاكلة جاء الأسلوب القرآني في الآيات التي ظنَّ بعض العلماء بأن القرآن الكريم أورد أحد جزأي الجملتين على غير الذي أورد نظيرها من الجملة الأخرى، أي لم يطابق في الاسمية والفعلية، من أجل رعاية الفاصلة في نهايات الآيات.

ففي الآية الثامنة من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أتى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ بالصيغة الاسمية، ولم يقل: (لم يؤمنوا) أو (ما آمنوا) بالصيغة الفعلية، ليطابق قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا﴾ في بداية الآية، وليس لرعاية الفاصلة فحسب ـ كما يزعم البعض ـ وإنما جاء بالصيغة الاسمية هنا للدلالة على التأكيد والمبالغة في عدم ثبوت صفة الإيمان للكافرين، أو وقوعها، أو استقرارها فيهم من قبل، وأنهم لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر من قبل، ولا بغيرهما.

ـ وعلى شاكلته قوله تعالى من سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(1) السامرائي: التعبير القرآني، ص12، طبعة2، دار عمار، الأردن، 2002م.

فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. فقال: (الْكَاذِبِينَ) وهو الأبلغ ـ في رأينا ـ ولم يقل: (الذين كذبوا)، كما يرى البعض من أجل الفضيلة السجعية، وإنما جاء بالصيغة الاسمية في هذه الآية الكريمة، للدلالة على ثبوت صفة الكذب فيهم، واستقرارها في نفوسهم، وأن الكذب صار طبيعة فيهم، ولا مجال إلى انتزاعه من قلوبهم، أو حتى يتغيروا بعد ذلك فيصبحوا صادقين.

ـ ونحوه قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿. . . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. فعبر بالصيغة الاسمية فقال: ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وهو الأبلغ أيضاً في رأينا ـ ولم يعبر بالصيغة الفعلية فيقول: (وأولئك الذين يتقون). لا لما يعتقده البعض أنه جاء بالصيغة الاسمية من أجل رعاية الفاصلة، وإنما للدلالة على أن التقوى فيهم أصبحت صفة ثابتة ومستقرة في قلوبهم، وحادثة لم تتغير. ولو عبر عنها بالصيغة الفعلية فقال: (يتقون) لدلت على أنهم يتدربّون على التقوى لتستقر في قلوبهم، ويستمرون في ذلك، وأنهم لم يصلوا إلى درجة التقوى بعد، وهذا المعنى غير مراد هنا.

ـ وعلى شاكلته قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿36﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾. فإن التعبير بصيغة الاسمية في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ أبلغ من التعبير بالصيغة الفعلية لو قال: (وما يخرجون منها)، لمطابقة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾ في أول الآية.

فالمراد هنا التأكيد على بقاء الكافرين في النار، وثبوتهم فيها، وخلودهم، واستقرارهم في قاعها إلى أبد الآبدين، وأنهم مهما حاولوا الخروج منها، فلن يستطيعوا أبداً.

فضلاً عن أن إيثار التبعير بصيغة اسم الفاعل في الآية يؤكد على أن أمر الله (عز وجل) بإدخال الكافرين النار حاصل وواقع لا محالة، وكأنه حدث

وثبت، وتم بالفعل، في حين أن الفعل لم يحدث بعد، أي أن الله (سبحانه وتعالى) لن يدخل الكافرين النار إلا يوم القيامة.

ـ ونحوه قوله تعالى من سورة غافر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. فقد استخدم الأسلوب القرآني الفعل (لتسكنوا) مع الليل، واستعمل الاسم (مبصراً) مع النهار، ولم يُسَوِّ بينهما في الفعلية، فيقول مثلاً: (لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه)، ولا في الاسمية فيقول: (ساكناً ومبصراً).

ويرجع ذلك إلى إعجاز التبعير الفني لأسلوب القرآن، فقد جمع في هذه الآية بين الحقيقة والمجاز بنوعيه، ولو أنه عبر عنهما في صورة واحدة: الفعلية، أو الاسمية لضاع المعنى المراد، ولفقدنا فنية التبعير وجمالياته في الآية الكريمة.

فالآية تتحدث عن نعم الله (عز وجل) على خلقه في آية الليل، فتقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فعبّر عنها بالصيغة الفعلية، والجار والمجرور (لكم)، للدلالة على قصد النعمة، والتفضل علينا بها. ولو أنه عبر عنها بالصيغة الاسمية فقال: (جعل لكم الليل ساكناً)، لم يؤد هذا المعنى من ناحية، ولكان الجار والمجرور (لكم) هنا زائداً، وليس له فائدة من ناحية أخرى، ولفقد الأسلوب ـ أيضاً ـ جماله الفني، لخلوه من التعبير المجازي من ناحية ثالثة. إذ إن (الليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساجٍ وساكن لا ريح فيه)[2].

ـ ثم عدل بعد ذلك عن الفعلية إلى الاسمية، ومن الحقيقة إلى المجاز ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فالنهار لا يبصر، بل يبصر ـ الناس والكائنات الحية فيه. فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي، وأدى المعنى المراد من الآية في صورة

(2) الزمخشري: الكشاف، ج3، ص58.

جمالية مجازية. ولو قال: (لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه) لفقد ثوب المجاز المرسل الذي اكتسى به المعنى جمالاً، وفنية رائعة. ولو قال: (ساكناً ومبصراً) لفقد التعبير مراد الله منه، وهو التدليل على نعم الله على خلقه.

ولو قال ـ أيضاً ـ (جعل لكم الليل ساكناً والنهار لتبصروا فيه) لفقد التعبيران الصورة المجازية، وفقدا معها فنية التعبير العالية التي امتاز بها القرآن الكريم.

وهذا كله يفصح عن دقة التعبير القرآني، وإلى أن كل كلمة وضعت في موضعها الصحيح الذي لا نستطيع معه أن نغير موضعها، أو صيغتها، أو نستبدلها بأخرى، ولو كان في مفهومنا القاصر أنها مرادفة لها، ولو حدث ذلك لاختل المعنى، وذهب معه مراد الله منه (والله أعلم).

ويطرح الزمخشري في كشافه سؤالاً عند تفسيره لهذه الآية الكريمة، ثم يجيب عليه فيقول: (فإن قلت: لِمَ قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين، أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدي معنى الآخر، ولأنه لو قيل: (لتبصروا فيه) فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز)[3].

ـ وتبدو روعة التعبير بالاسمية ـ أيضاً ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، وقد صور لنا النهار بشاهد عيان يشهد علينا يوم القيامة على جميع ما نعمل في الحياة الدنيا: سواء كان خيراً، أم شراً. ويكمن سر جمال هذه الصورة في تشخيص النهار وتجسيمه، على هذا النحو البديع الجميل، والذي يحوي الكثير من المعاني العميقة، التي تدفع الإنسان إلى مراقبة الله (عز وجل)

(3) المصدر نفسه: ج3، ص58.

ومرضاته، والخوف منه، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، في كل ما يصدر منا: من قول، أو فعل، أو عمل.

ـ كما عبر ـ أيضاً ـ في نهاية الآية بالصيغة الفعلية في قوله: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) حيث نفى شكر الغالبية العظمى من الناس لله (عز وجل) على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، بالصيغة الفعلية في قوله: (لا يَشْكُرُونَ) لأن الشكر لله يجب أن يكون بصورة مستمرة ومتجدِّدة، بتجدد نعم الله علينا، واستمرارها، وتعددها.

ـ ونحوه وقد استخدم الأسلوب القرآني الصيغة الفعلية التي تدل على الحدوث والتجدُّد والاستمرار، استخداماً كثيراً، عند الحديث عن تسبيح الله، والسجود له. على شاكلة قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ـ وقوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

ـ وقوله تعالى من سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

ـ ومن سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

فجاء بالأفعال: يسبحون، ويستغفرون، ويسبح، ليدل على الحدوث والتجدد والاستمرار.

ولم يرد الاستغفار بالصيغة الاسمية التي تفيد الثبوت إلا في آية واحدة ضمن حديثه عن صفات المتقين، وما أعد الله لهم من جنات تجري من تحتها الأنهار فقال في سورة آل عمران: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ

وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على أن هذه الصفات جميعاً ثابتة فيهم، ولا تتغير حتى يلاقوا ربهم.

ـ ولم يرد الاستغفار ـ أيضاً ـ بالصيغة الوصفية إلا في آيتين:

إحداها: في وصف نبي الله يونس (عليه السلام) في سورة الصافات: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿143﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أن التسبيح كان وصفاً ثابتاً لسيدنا يونس عليه السلام فنجا، والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلص من الكروب والمكاره، وأن نجاة سيدنا يونس عليه السلام من هذا الكرب العظيم كان بمداومته التسبيح لله (عز وجل).

والثانية: في وصفه الملائكة في صورة الصافات أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿165﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾. أي أن التسبيح هي صفة الملائكة الثابتة وقد ذكر ذلك القرآن صراحة في سورة الأنبياء فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. إذن فالتسبيح وصف ثابت فيهم[4].

ـ وقد ذكر صاحب البرهان بعض لطائف التراكيب بالأفعال، والأسماء، فقال: (وانظر هنا إلى لطيفة، وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاً، وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال، كقوله تعالى من سورة إبراهيم: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، وقال من سورة الحج: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ومن سورة الرعد: ﴿. . . وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، ومنه قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، لأن البصر صفة لازمة للمتَّقي، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا تذكر رأى المذكور ولو قيل: (يبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عَود صفة)[5].

(4) السامرائي: مصدر سابق، ص31.
(5) الزركشي: البرهان، ج4، ص168.

ويعلق السامرائي على ذلك فيقول: (ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال، وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط، للدلالة على أن هذا الأمر طارئ يفعله من يستحقه، ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته، قال تعالى من سورة غافر: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال من سورة البقرة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. في حين وصف الشيطان بذلك فقال في القصص: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال في الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝3 كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقال الشيطان عن نفسه في سورة النساء: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العليَّة الثابت، والمتجدد الهداية، فقال من سورة الحج: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال من سورة الفرقان: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، وقال في المائدة: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وقال في سورة يونس: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، فشتان ما بين الوصفين[6].

ـ ومن روائع هذا الفن في هذا الباب قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝24 إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

فقد جاء في كتب التفاسير أن إبراهيم (عليه السلام) أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار[7].

فقد فرق التعبير القرآني بين السلامين، فأتى بسلام الملائكة (بالنصب)

(6) السامرائي: المصدر نفسه، ص31، 32.

(7) انظر: التفسير الكبير، ج28، ص212، والكشاف ج1، ص38 ـ 39، ج، ص169، بدائع الفوائد، ج2، ص157.

والتقدير (نُسَلِّمُ سلاماً) أي بتقدير فعل محذوف. وأتى برد الخليل (عليه السلام) عليهم (بالرفع) على الاسمية وتقديره (سلام عليكم).

وحركة (الرفع) أقوى من (النصب)، وكذلك التعبير بالاسمية أثبت وأقوى من التعبير بالفعلية، فدل بذلك على أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ردّ السلام بأفضل من تحية الملائكة له، قال تعالى من سورة النساء: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾. فردّ التحية على الملائكة بأفضل منها.

ـ ومن هذا الباب أيضاً ما جاء في سورة (الكافرون) قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿1﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿2﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿3﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿4﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿5﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

فقد نفى التعبير القرآني على لسان الرسول ﷺ عبادة الأصنام عن نفسه، بالصيغة الفعلية والاسمية معاً؛ فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ صيغة فعلية. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ بالصيغة الاسمية، وأتى بفعل المضارعة (تعبدون) وبفعل الماضي (عبدتم). أي نفى عليه (الصلاة والسلام) عن نفسه عبادة الأصنام في الحالتين: الفعلية المتجددة، والاسمية الثابتة، وفي جميع الأزمان (المضارعة، والمستقبلية، والماضية) وهذا في غاية الكمال، ودقة الإحكام؛ إذ لو اقتصر على الفعلية لقيل: إن هذا الأمر حادث قد يزول، ولو اقتصر على الاسمية لقيل: إن هذا هو وصفه في أغلب أحواله، وليس مستمراً على الوصف، وإنما قد يفرقه أحياناً، مثله مثل الكريم الجواد، قد يأتيه وقت لا يجود فيه، أو مثله مثل الحليم الذي يأتيه وقت يفقد هذا الحلم، فيغضب ويعاقب، أو الرحيم الذي قد يأتيه وقت لا يرحم.. إلخ، ولكي يزيل التعبير القرآني هذا الظن من النفوس أتى بنفيه (صلوات ربي وسلامه عليه) لعبادة الأصنام بالحالتين الاسمية والفعلية معاً، وبزمن الماضي والحاضر والمستقبل، حتى لا يجعل مجالاً للشك. ولكن عندما نفى عن المشركين الكافرين العبادة

الحقة أتى بصيغة واحدة، هي الصيغة الاسمية، وكررها مرتين، فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ للدلالة على أن الغالب عليهم أنهم ثابتون على كفرهم، وعبادتهم لآلهتهم الوثنية، وأنهم لا يتخلّوْن عنها بسهولة إلى العبادة الحقّة، واتباع الرسول ﷺ إلا من هدى الله (عز وجل). فقابل الأسلوبُ القرآني إصرارَهم على الكفر على وجه الثبوت ـ بنفي عبادتهم لله على وجه الثبات أيضاً؛ ولذلك قال تعالى في سورة الكهف: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ وللدلالة ـ أيضاً ـ على أن إصراره ﷺ على عدم عبادة أصنامهم أقوى وآكد من إصرارهم هم على اتباعه (صلوات ربي وسلامه عليه) وعبادة الله الواحد الحق.

ـ ومن بديع التعبير القرآني بالاسمية والفعلية ـ أيضاً ـ قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فقد أتى الأسلوب القرآني بالفعل (يعذبهم) مع كان المنفية في حالة بقاء الرسول بين المؤمنين. أي أن العذاب موقوت ببقاء الرسول ﷺ بينهم، فإذا انتقل الرسول إلى ربه، فهم ليسوا ممنوعين من العذاب.

ثم أتى بعد ذلك بالاسم (معذبهم) المنفي بـ(ما كان) في حالة استغفارهم. أي أن العذاب موقوف على دوام الاستغفار.

فأتى في صدر الآية بالجملة الفعلية، فربط نفي العذاب ببقاء الرسول بينهم، وبقاء الرسول بينهم لا يكون للأبد، وبصفة دائمة. ثم جاء بالجملة الاسمية برفع العذاب عنهم باستغفارهم. فجعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب، ولو لم يكن الاستغفار صفة دائمة فيهم، أي أنهم لا يصيبهم العذاب طوال فترة وجود الرسول بينهم. وإذا انتقل الرسول إلى ربه فإن العذاب ليس ببعيد عنهم، إلا إذا داوموا على الاستغفار، ورابطوا عليه.

ففترة الرسول بينهم مهما طالت فهي قصيرة، أما الاستغفار فهو دائم وثابت معهم، يمنعهم من العذاب ما داموا ملازمين له، ثابتين عليه.

ـ ونحوه قوله تعالى من سورة القصص: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾. فقد أتى بالجملة الاسمية في صدر الآية فقال: (مُهْلِكِي الْقُرَى) وفي عجزها ـ أيضاً ـ فقال: ﴿وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ للدلالة على أن الهلاك ثابت وقائم في الأمم ما دام أهلها ثابتين على الظلم متمسكين به، حتى أصبح هذا الظلم صفة أساسية فيهم، غير طارئة عليهم، فاستحقوا الإهلاك لذلك.

إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض (بين إعجاز المعنى وروعة الموسيقا)

رأى بعض العلماء أن الأسلوب القرآني آثر بعض صيغ المبالغة على بعض، أي أنه يستعمل في مكان ما، صيغة ما، ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، إلى صيغة أخرى، من أجل رعاية الفاصلة، نحو قوله تعالى من سورة ص: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. فآثر صيغة (عجاب) على (عجيب) من أجل رعاية الفاصلة.

ونرى أن هذا الرأي قد جانبه بعض الصواب، لأن صيغة (عُجَابٌ) أبلغ في هذا المقام من صيغة (عجيب)، لأن المعنى هو الذي أوجب ذكر (عجاب)، وتفضيله على غيره من صيغ المبالغة الأخرى، التي جاءت في القرآن الكريم. نحو قوله تعالى من سورة ق: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ـ وفي سورة هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

فلو أننا استبدلنا صيغة (عُجَابٌ) بصيغة (عَجِيبٌ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، أو أي صيغة أخرى، لما أدت المعنى الذي أدته كلمة (عُجَابٌ) التي تفصح عن شدة التعجّب والدهشة والمفاجأة من رد رسول الله ﷺ في هذا المقام على قريش، عندما ذهب صناديدها ـ وكانوا خمسة وعشرين نفساً، وكان ذلك بعد إسلام سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وَفَرَحِ المؤمنين به فرحاً شديداً، وقد شق ذلك على قريش، وبلغ منهم كل مبلغ،

فمشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، يريدون الذين دخلوا الإسلام، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، وقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: ماذا يسألوني؟ قالوا: ارفَضَّنا وارفضَّ ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال عليه السلام: أرأيتم إن أعطيتكم ماسألتم أمعطيَّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟ فقالوا: نعم وعشراً. أي نعطيها وعشرة كلمات معها. فقال: قولوا لا إله إلا الله. فأصابتهم الدهشة الشديدة من عجاب ما سمعوا، فقاموا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

فكان رد الرسول ﷺ عليهم صعباً، وصدمة لهم، وفي غاية الإثارة والدهشة، وخاصة بعد أن جاراهم في القول، ثم بكتهم بالجواب المفحم، والذي توقعوا منه غيره، فانتابتهم حالة من الدهشة والتعجّب الشديدين من ردِّه الذي جعل آلهتهم المتعدِّدة التي عكفوا على عبادتها، هم وآباؤهم دهوراً طويلة، لا يعرفون غيرها جعلها إلهاً واحداً، وكان كل منهم يعبد إلهه، ويفضله على غيره من الآلهة. فجاءت كلمة (عُجَابٌ) في ردهم أبلغ تصوير على دهشتهم في هذا المقام، مؤثراً إياها دون غيرها من أجل المعنى، وليس لمراعاة الفاصلة فحسب ـ كما يدعي البعض ـ وإن كنا لا نغفل الجانب الموسيقي الذي تحدثه هذه الكلمة في سياقها، وتلك عظمة القرآن وروعة بلاغته، وقمة فصاحته، فهو يختار ألفاظه اختياراً فنيًّا دقيقاً، يؤدي بها المعنى المراد في ثوب رائع من الموسيقا الراقية التي لم تتعمد لذاتها، هذه واحدة.

أما الأخرى ـ فإن السياق والمعنى هو الذي أدى إلى تفضيل هذه الصيغة (عُجَابٌ) في هذه الآية الكريمة، بدلاً من (عَجِيبٌ)، في حين أنه استخدم هذه الصيغة في سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ـ وفي سورة هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾..

فإن استخدام صيغة المبالغة (عَجيبٌ) أو (عُجَابٌ) على حسب ورودها في الآيات السابقة، جاء في موضعه، وعلى حسب مراد الله في السياق الذي وردت فيه، وكان في قمة الفصاحة وذروة البلاغة، فكل صيغة وردت على حسب قوة العجب من الشيء المتعجب منه، فضلاً عن حدوث التدرج في هذا العجب وفقاً للسياق والمعنى الكلي لكل آية.

ـ فنجد مثلاً في سورة (ق) أن العجب كان مصدره مجيء رسول الله ﷺ من جنسهم، بل دونهم في الرياسة الدنيوية، فقالوا: إن محمداً مساوٍ لنا في الخلقة الظاهرة، والأخلاق الباطنة، والنسب والشكل والصورة، فكيف يعقل أنه يختص من بيننا بهذا المنصب العالي؟! فهم عدّوا ذلك أمراً خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشد الإنكار، فقالوا: (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) ولم يؤكد هذا العجب.

ـ أما في سورة هود فكان العجب أكبر نسبياً مما في سورة (ق)، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فأتى بصيغة المبالغة (عَجِيبٌ)، وأكد هذا العجب (بأن) الناصبة، و(اللام) الداخلة على خبرها، ولم يفعل ذلك في سورة (ق)؛ ذلك لأن العجب في سورة هود كان أكبر، ومخالفاً للعادة، وهو أن تلد امرأة عجوز وعقيم، فضلاً عن أن بعلها كان ـ أيضاً ـ مثلها شيخاً كبيراً طاعناً كبيراً في السن، فكل ذلك يدعو إلى العجب والدهشة. فإن المعتاد أن العجوز لا تلد، فما بالك لو كانت ـ أيضاً ـ عقيماً، فإن الولادة تكون أبعد ما تكون، وإذا اجتمع مع هذا وذاك أن يكون بعلها ـ أيضاً ـ ليس فتياً، إنما شيخ طاعن في السن، فلا شك أن الحمل والولادة منها سوف يكون أبعد، بل في حكم الاستحالة؛ لذلك أكد هذا العجب (بأن، واللام) فقال: (إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ).

ـ أما في سورة (ص) فكان العجب أكبر بكثير من العجب في سورتي: (هود)، و(ق)، إذ كيف يؤمن هؤلاء بوحدانية الإله، ونفي الشرك، وهم قوم طاعنون في عبادة الآلهة المتعددة؟!

وهل كانت عداوتهم لرسول الله وحربهم له بالسيف سنوات وسنوات إلا لتوحيده الآلهة في إله واحد؟ ومن ثم كان العجب هنا أكبر كثيراً، فجاء بصيغة المبالغة (عُجَابٌ)، وأكد ذلك أيضاً بأن الناصبة المؤكدة، و(اللام). فضلاً عن أن صيغة (فُعَال) أبلغ من صيغة (فَعِيل) عند العرب؛ إذ هي تقول: رجل شجيع، وإذا زادت في شجاعته تقول شجاع، ورجل كريم وإذا بالغت في كرمه تقول كُرام، ونحوه: طُوال وطويل[8].

فإن استخدام الأسلوب القرآني لصيغة (عُجَابٌ) في هذه الآية دون (عَجِيبٌ) كان في قمة الدقة التعبيرية الفنية؛ إذ إن المقام والسياق اقتضى هذا الاستخدام، وهو يتحدث على لسان مشركي قريش، وإن عدوله عن استخدام صيغة (عَجِيبٌ) لم يكن بغرض رعاية الفاصلة فحسب، وإنما الذي أوجب استخدام هذه الصيغة، وعدم استخدام تلك، هو السياق، ومراد الله منه. فضلاً عن أن صيغة عجاب أبلغ من عجيب عند العرب الذي نزل القرآن الكريم بلغتهم وعلى أساليبهم.

ـ ومما يؤكد أن رعاية الفاصلة ليست الأصل في استبدال صيغة محل صيغة أخرى أن هذا الأسلوب ورد في القرآن الكريم، ولم يكن في موضع فاصلة.

نحو قوله تعالى في سورة الأنعام على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ـ وقوله تعالى ـ أيضاً ـ على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في سورة

(8) السامرائي: مصدر سابق ص36.

الزخرف، وقد عدل عن (بَرِيءٌ) إلى (بَرَاء) فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

فالذي أوجب هذا العدول من الصفة المشبهة (بَرِيءٌ) إلى المصدر (بَرَاء) السياق نفسه؛ إذ إن هناك فرق بين المقامين:

ـ فإن مقام إبراهيم (عليه السلام) في آية الأنعام مقام احتجاج، ومجادلة قومه بالتي هي أحسن، ومجاراتهم فيما يقولون للوصول إلى الحقيقة بأنفسهم، وعدم الحجر على آرائهم، والاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أن ما يتغير ويتبدل لا يصلح للربوبية، وكان ذلك محاولة منه (عليه السلام) في بداية الدعوة، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق التفكّر والتدبّر والاستدلال الصحيح الذي يوجب أن الآلهة التي يعبدونها من أصنام، وكواكب: شمس، وقمر، لا تصلح أن تكون إلهاً؛ لأنها تتغير وتتبدل، فهي وراءها محدث أحدثها، وصانع صنعها، ومدبر يدبر طلوعها، وأفولها، وانتقالها، وسيرها، وسائر أحوالها.

وقوله: (هَٰذَا رَبِّي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام)[9].

ـ أما في الآية الثانية فهو قد وصل مع قومه إلى طريق مسدود، بعد أن أنهكوه في الدعوة، وإثبات الحجة على بطلان ما يعبدون، ولم يستجيبوا له، بل وجد رفضاً قاطعاً من أبيه وقومه لقبول دعوته، فأعلن حربه على الشرك، وأعلن براءته مما يعبدون.

(9) الزمخشري: مصدر سابق ج2، ص40، وأيضاً كتابنا دحض المفتريات على أنبياء الله (مخطوط).

لذلك قال في الآية الأولى ـ (بَرِيءٌ) بالصفة المشبهة، وفي الثانية ـ (بَرَاء) بالمصدر الذي هو أقوى من (بَرِيءٌ) لأن صيغة المصدر تدل على الحدث المجرد، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك في سورة التوبة، عندما برئ من المشركين فقال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فأتى بالمصدر (بَرَاءَةٌ) ولم يأتِ بالفعل (برئ) أو بالصفة (بريء)؛ لأن التعبير بالمصدر أقوى من التعبير بالصفة المشبهة، وأبلغ من التعبير بالفعل نفسه، فحين تقول: (عدل) يكون أبلغ وأقوى من قولك: رجل عادل؛ لأن معناه أن الرجل من كثرة ممارسته للعدل، أصبح هو العدل بذاته. ونحوه: رجل (ظلم) أبلغ من رجل (ظالم) ومثله رجل (سوء) أبلغ من رجل (سيئ)؛ لأن معنى رجل عدل، أو ظلم، أو سوء، يفصح عن أنه هو العدل بذاته، أو الظلم بذاته، أو السوء بذاته. أما (عادل أو ظالم، أو سيئ) أي أنه اتصف بالعدل أو بالظلم أو بالسوء.

ـ وعلى هذه الشاكلة ـ أيضاً ـ قوله تعالى في هلاك ابن نوح (عليه السلام) في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ (ولم يقل: إنه (عامل) غير صالح، أو إنه (لا يعمل) صالحاً. فكأني بالله عز وجل يقول لنوح (عليه السلام): إن ابنك من كثرة عمله السيئ تغير فلم يعد فيه من عنصر الذات لشيء، بل صار العمل السيئ نفسه، أو العمل غير الصالح ذاته. (ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون ـ أعني نون الوقاية ـ في آية الزخرف زيادة في التوكيد، فقال: (إنني براء) ولم يأت بها في آية الأنعام، بل قال: (إني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد)[10].

وهذا ينم على دقة التعبير القرآني، وفنيته العالية في استخدامه لِلَّفظة

(10) انظر السامرائي: معاني النحو، ج1، ص388، والتعبير القرآني، ص38.

القرآنية في موضعها المناسب الذي يتطلبه المعنى، ولا يهمل ـ في الوقت نفسه ـ الجانب الموسيقي، لما له من أثر كبير في توضيح المعنى، واستقباله دون نفور أو ملل، حتى أنك لا تمل قراءة القرآن أو سماعه أبداً مهما طالت فترتها، أو قصرت، بل يزيد تكراره وترديده حلاوة.

بل إن من روعة الأسلوب القرآني، ودقة تعبيره، وفنيته العالية، والمعجزة أيضاً في طرح المعاني، أنه قد يأتي بفعل، ثم لا يأتي بمصدر هذا الفعل، وإنما يعديه إلى مصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق، فيجمع بين معنى الفعل، ومعنى المصدر من أقرب طريق، وأيسره، على شاكلة ما جاء في قوله تعالى من سورة المزمل، مخاطباً الحبيب محمداً ﷺ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

فقد جاء بفعل الأمر ﴿وَتَبَتَّلْ﴾، وكان من المتوقع، والطبيعي أن يأتي بمصدره، فيقول: (تبتل إليه تبتلاً)، ولكن لم يحدث هذا، وإنما أتى بمصدر فعل آخر هو (بَتَّل) فقال: ﴿تَبْتِيلًا﴾ لأن مصدر الفعل (تَفَعَّل) يأتي على (تَفَعُّلاً) فتقول تكلم تكلُّماً، وتعلم تعلُّماً، تقدم تقدُّماً.. إلخ. أما مصدر الفعل (فَعَّل) فيأتي على (تَفْعِيلاً) فتقول (عَرّفَ تعريفاً، كَسَّرَ تكسيراً) قَطَّعَ تقطيعاً (تَبَتَّل تبتيلاً).. إلخ. وفي هذه الصيغة تكمن المبالغة والتكثير، فقد جاء الله عز وجل بالفعل (تَبَتَّل) الذي يفيد التدرج في الحدث، ثم جاء بمصدر فعل آخر، ليفيد المبالغة والتكثير، فقال (تَبْتِيلاً). ولو أنه جاء بنفس مصدر الفعل فقال (تبتل إليه تبتلاً) لأفاد معنى التدرج فقط، ولم يفد التكثير والمبالغة التي أرادها الله، ويكمن في معنى مصدر الفعل الآخر (بَتَّل).

ولو أنه ـ أيضاً ـ جاء بالفعل (بَتَّل) ومصدره فقال: (وبَتِّل نفسك إليه تبتيلاً) لاقتصر المعنى على صيغة التكثير والمبالغة التي تكمن في الفعل ومصدره، لكنه سبحانه وتعالى أراد المعنيين فجمع بين الفعل (تَبَتَّل) الذي يفيد التدرج، ومصدر الفعل الآخر (بَتَّل) (تَبْتِيلاً) ليفيد ـ أيضاً ـ معنى التكثير والمبالغة في هذه العبارة في آنٍ واحد، وهذا أبلغ وأوجز في العبارة.

ويقول صاحب التفسير القيم: (ومصدر تبتل إليه: (تبتُّل) كالتعلُّم

والتفهم، ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعّل) لِسرٍّ لطيف، فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدرّج والتكلّف والتعلّم والتكثير والمبالغة، فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بتّلْ نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتُّلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير في القرآن، وهو من حسن الاختصار والإيجاز)[11].

ويضيف أستاذنا السامرائي على ذلك فيقول: (وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية الكريمة، بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر، وهو أنه جاء الفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده، وهو توجيه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة، شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانته بالكثرة، وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً، ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلّة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له، فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً)[12].

ويستطرد قائلاً بما يشير إلى فهمه العميق للنص القرآني: (ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر، فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية؛ لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد، فقال:

ـ (تبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة، لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد بها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه)[13].

---

(11) التفسير القيم، ص501 ـ 502.

(12) السامرائي: التعبير القرآني، ص35.

(13) المصدر نفسه: ص36.

ـ وعلى شاكلته أيضاً، جاء قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

والقياس أن يقول: (أن يضلهم إضلالاً بعيداً) فأتى بالفعل (يُضِلُّ) الذي يفيد التدرج، ثم أتى بمصدر فعل آخر فقال (ضَلالاً) الذي يفيد المبالغة والكثرة، وفعله (ضَلَّ) وليس (يُضِّلُّ) الذي مصدره (إضلالاً) ليجمع بين المعنيين: التدرج، والكثرة.

فالمعنى المراد من الآية: (إن الشيطان يريد أن يُضلهم، ثم يريد بعد ذلك أن يَضلُّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة، وهم يتمُّونها، فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال، ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو، ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين، والمعنيان مرادان (والله أعلم)[14].

إيهام العدول عن لفظة إلى أخرى من أجل الموسيقا

ومما قالوا فيه برعاية الفاصلة، آيات الهمزة: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ على القول بأن الأفئدة في معنى القلوب، وعدل إليها للمشاكلة بين رؤوس الآيات.

ونحن نتفق مع ما ذهبت إليه الدكتورة بنت الشاطئ من أن الأفئدة والقلوب في حس العربية المرهف لا تترادف ليقال فيها برعاية الفاصلة، بل يطلق القلب بدلالة عامة على الجهاز العضوي من أجهزة الجسم، وعلى موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان.

وأما الفؤاد فلا يطلق إلا بدلالة خاصة على المعنوي دون العضوي. ونحن نعرف مثلاً جراحة القلب، وأما جراحة الفؤاد فلا تدخل في نطاق الطب البشري.

(14) السامرائي: معاني النحو، ج2، ص589، والتعبير القرآني، ص36.

ونحن نأكل القلب كما نأكل الكبد والكلى، أما الفؤاد فليس مما يؤكل أو يباع. كما نعرف قلوباً للبشر والحيوان الأعجم على اختلاف فصائله، أما الفؤاد فللإنسان لا غير[15].

ثم تستطرد قائلة: (وبهذه الخصوصية في الدلالة المعنوية للفؤاد جاء اللفظ مفرداً، وجمعاً، ست عشرة مرة في القرآن الكريم، ليس فيها ما يحمل على معنى الجارحة.

والقلب وإن جاء في القرآن في المعنويات كذلك من الاطمئنان والرحمة والتآلف والخشوع والوجل والفقه والطهر، ومع الارتياب والتقلّب والخوف والاشمئزاز والقسوة والتكبّر والجبروت والزيغ والمرض والإثم والغفلة والعمى، إلا أن العربية لغة القرآن لا تستعمل غير القلب في الدلالة الأصلية على هذا العضو من الجسم.

وإذن يكون لإيثار الأفئدة على القلوب في آية الهمزة مع الملحظ البلاغي من النسق اللفظي، والجرس الصوتي، مقتضاه المعنوي البياني في تخليص الأفئدة من حس العضوية التي يحتملها لفظ القلوب فيما ألف العرب من لغتهم. . . ولا تزال تستعمل القلوب بمعناها العضوي في التشريح والطب، وأصناف اللحوم، ولا نستعمل الفؤاد بهذه الدلالة على الإطلاق.

وكذلك لا ترادف: مؤصدة، ومغلقة. ليقال باحتمال العدول عن أولهما إلى الأخرى رعاية للفاصلة، بل يتميز الإيصاد بخصوصية الدلالة على إحكام الإغلاق، وقوة تحصينه، والعربية استعملت الوصيد للبيت الحصين يُتَّخذ من حجارة في الجبال، وتقول: استوصد في الجبل، أي اتخذ فيه حظيرة من حجارة.

---

(15) بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق، ص275، طبعة 2، دار المعارف سنة 1984.

وبمثل هذا المعنى من الإيصاد المحكم جاءت آية البلد: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿19﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾.

ولا رعاية فيها لفاصلة لفظية، بل المعنى من إطباق النار على أصحاب المشأمة، وإحكام إيصادها، هو ما تعلّق به البيان الأعلى، والله أعلم[16].

فالسياق أولاً هو الذي أتى بلفظة (الأفئدة) دون (القلوب)، وأتى ـ أيضاً ـ بلفظة (مؤصدة) دون (مغلقة)، وليس الموسيقا، أو رعاية الفاصلة؛ إذ لو أننا استبدلنا كل كلمة بمرادفتها، ولو كانت تؤدي الإيقاع الموسيقي نفسه لاختل المعنى، وضاع مراد الله من هذه الآية، وفي هذا يكمن إعجاز التعبير الفني للقرآن الكريم.

إيهام التعدية بحروف الجر من أجل الموسيقا

قال في آية الزلزلة: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿2﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿3﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿4﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ إنه عدي أوحى بـ (اللام) وإن كان المشهور تعديتها بإلى، لمراعاة الفاصلة[17].

ويقول الزمخشري: («أوحى لها» بمعنى أوحي إليها، وهو مجاز كقوله «أن نقولَ له كن فيكون» قال: أوحى لها القرَارَ فاستقرَّتْ)[18].

وحين نقرأ القرآن الكريم، نجد أن (اللام) المفردة لم ترد بمعنى (إلى) في الفاصلة القرآنية فقط حتى نسلم بأنها جاءت لرعايتها، وإنما وردت بمعنى (إلى)، وغيرها من المعاني الأخرى في غير الفاصلة كثيراً، فقد (وردت بحالاتها كلها في القرآن الكريم في ثلاثة آلاف وثمان مئة وثمانية وثلاثين

(16) المصدر نفسه: ص276.

(17) أبو حيان: البحر المحيط، ج8، 501.

(18) الزمخشري: ج4، ص784، هذا شطر البيت للعجاج من قصيدة يقول فيها: الحمد لله الذي استقلت.. بإذنه السماء واطمأنت.. بإذنه الأرض وما تعنت.. أوحى لها القرار فاستقرت.. وشدها بالراسيات الثبت.. والجاعل الغيث الأمت [الكشاف ج3، ص74].

موضعاً، زادت فيها مواضع (اللام) الجارة عن ثمانين بالمئة، الأمر الذي يشير إلى مدى شيوعها في الكلام عامة، وسعة تأثيرها في المعاني القرآنية على وجه الخصوص)[19].

* فقد جاءت بمعنى (إلى) في غير الفاصلة في قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾. كما جاءت بمعان أخرى تجاوزت تسع عشرة معنى.

* كالاستحقاق كما في قوله تعالى من سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* والاختصاص على نحو ما ورد في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

* والملك كما جاء أيضاً في سورة البقرة: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* والتمليك، على نحو ما ورد في سورة السجدة: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

* وشبه التملك، على نحو ما جاء في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

* والتعليل، على شاكلة ما جاء في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

(19) انظر هامش الأدوات النحوية ومعانيها في القرآن الكريم (عرض وتحليل) للدكتور محمد علي سلطاني، طبعة دار العصماء، دمشق، سنة 2000م.

ـ وسورة الشورى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

* وتوكيد النفي (لام الجحود) على نحو ما جاء في سورة آل عمران: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

* وبمعنى (على) للاستعلاء الحقيقي أو المجازي، فنذكر ما جاء منه على سبيل الاستعلاء الحقيقي قوله تعالى من سورة الصافات: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾.

* ومما جاء على سبيل الاستعلاء المجازي، ما جاء في سورة الكهف: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

* وبمعنى (في) على شاكلة ما ورد في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

* وبمعنى (بَعْد) وتسمى المؤقتة، نحو ما جاء في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

* وبمعنى (مع) كما في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

* وبمعنى (عن) كما في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.. الخ[20].

ونحن نتفق مع ما ذكرته بنت الشاطئ من تعليل في نفيها أن تكون التعدية

(20) دكتور محمد علي سلطاني، المصدر نفسه، ص13 ـ 15.

في سورة الزلزلة سببها رعاية الفاصلة، فتقول: (ونستقرئ مواضع فعل الإيحاء في القرآن كله فلا نراه يتعدى بـ (إلى) إلى حين يكون الموحى إليه من الأحياء، يطرد ذلك في كل آيات الإيحاء بإلى، وعددها سبع وستون آية، وأما حين يكون الموحى له جماداً، فالفعل يتعدى باللام كآية الزلزلة، أو بحرف (في)، كما في آية فصلت: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

ودلالة (اللام) الإيحاء المباشر على وجه التسخير، ودلالة (في) البَثُّ والملابسة. وأما الإيحاء بـ(إلى) فيأخذ دلالته الخاصة في المصطلح الديني للوحي، إذا كان الموحى إليه من الأنبياء، وإلى غير الأنبياء: بشراً، أو حيواناً، يكون الإيحاء بمعنى الإلهام.

وللجماد بمعنى التسخير، فلا يكون الإيحاء للأرض في آية الزلزلة عدولاً عن أوحى إليها، لمراعاة الفواصل، بل التعدية باللام هنا متعينة، لأن الموحى إليه جماد، وقد هدى الاستقراء إلى أن القرآن لا يُعدي الفعل بحرف (إلى) إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء)[21].

فضلاً عن أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وجرى على أساليبهم، وكانت العرب تستخدم الحرف وتعطيه معنى حرف آخر، وكانوا يطلقون عليها (حروف المعاني) لما لهذه الحروف من دور كبير في تلوين المعاني وتغييرها، وقد تنبّه إلى ذلك النحويون منذ القدم، فوضعوا مؤلفات فيهامثل كتاب: (حروف المعاني للزجاج (ت 337هـ)، ومعاني الحروف للرمَّاني (ت 384هـ)، وحروف المعاني ـ في ألف ورقة (للقزَّاز (ت 412هـ)، وسبقهم إلى ذلك إمام النحاة سيبويه، حيث خص في النصف الثاني من الجزء الأول من كتابه ـ كل أداة أو مجموعة من الأدوات بما توصَّل إليه في شأنها مطلقاً عليها اسم الحروف، فتحدّث عن تركيبها ومعانيها وعملها، مستنداً في ذلك إلى ورودها

(21) بنت الشاطئ: مصدر سابق، ص277.

في أساليب العربية في مختلف أقوال العرب وأشعارهم، وتوالت بعده جهوده النحاة في حقل الأدوات عبر العصور، حتى أن النحاة قد خصوا هذه الحروف بدراسات مستقلة فيما بعد.

إيهام الإمالة من أجل الإيقاع الموسيقي

ذكر بعض علمائنا الأفاضل أن الأسلوب القرآني أمال ما أصله ألاّ يمال من أجل رعاية الفاصلة. كإمالة الألف في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، ليشاكل التلفظ بما بعدهما. والإمالة في الأصل هي تقريب الصوت من الصوت، كإمالة الألف نحو الياء، أو الفتحة نحو الكسرة. ولما كانت فواصل سورة الضحى مختلفة من حيث أصل الألف فيها فقد قرئت بالإمالة، ليوافق بين الألفاظ، وتجري الآيات على سنن واحد.

كما ذهب الفرّاء إلى أن القرآن جرى فيها على طرح كاف الخطاب من قلاك، اكتفاء بالكاف الأولى في (ودعك) لمشاكلة رؤوس الآيات)[22].

ـ كما عد الفخر الرازي من وجوه حذف الكاف رعاية الفاصلة[23]، ونهج نهجه أيضاً النيسابوري في تفسيره لآيات الضحى، ونظائرها[24].

وتكفينا مؤونة الرد على ذلك الدكتورة عائشة عبد الرحمن، فتقول: (ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب، لما عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. وليست في السورة كلها (ثاء) فاصلة، بل ليس فيها حرف (ثاء) على الإطلاق. وعلى مذهبهم كانت الفواصل تُراعي بمثل لفظ: فخبِّرْ لمشاكلة رؤوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ عن: (فحدث).

---

(22) انظر الفراء: معاني القرآن (سورة الضحى).

(23) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج8، (سورى الضحى).

(24) راجع هامش تفسير الطبري، طبعة مصر.

ثم تستطرد قائلة: ونرى ـ والله أعلم ـ أن حذف الكاف من (وما قلى) مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى ﷺ في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك.

لما في (القلى) من حسّ الطرد والإبعاد، وشدة البغض. وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة، وأمل اللقاء، وحذفت كاف الخطاب في الفواصل بعدها، لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها، ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنياً عن الكاف فإن ذكرها يكون من الفضول والحشو المنزه عنها أعلى بيان)[25].

وهذا التخريج في غاية الروعة، ويتمشى مع سياق المعنى الإلهي الذي خاطب به الله (عز وجل) حبيبه المصطفى (صلوات ربي وسلامه عليه). وقد أوردنا عند حديثنا عن الحذف بعض الآيات الكريمة المماثلة، التي حذف منها المفعول به، ليس لغرض الفاصلة كما يقولون، وإنما كان الحذف لغرض بلاغي فني وجمالي أيضاً، فضلاً عن أن هذا الحذف أضاف معنى إضافياً لا يستفاد عند الذكر، وكذلك اكتسب صفة الإيجاز، والتنزه عن العبث، وإن كنا لا نهمل الجانب الموسيقي، أو نقلل من قيمته، ولكننا نرفض ـ أيضاً ـ أن يكون هذا الجانب مقصوداً لذاته فحسب نحو ما جاء في قوله تعالى من سورة طه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾، وقوله من سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿72﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، وغيرها[26].

الموسيقا والتغاير في البنية اللفظية في نهاية الآيات

قد يقع التغاير في حركات بنية اللفظ في بعض نهايات آي القرآن الكريم،

(25) بنت الشاطئ: مصدر سابق، ص27.

(26) انظر هذا البحث (الحذف).

فيؤثر بعض القراء البناء الذي يحقق توافق الفواصل، ويقتضيه تناغم الإيقاع فيما بينها، وقد سار هذا الوجه علة لاختيار القراء، وتوجيه القراءة في مواضع متعددة. فلفظة (رشداً) تختلف قراءتها حيث وقت في آي التنزيل بين ضم (الراء) وسكون (الشين)، وتحريكهما (بالفتح) معاً[27].

وقد وقعت هذه اللفظة فاصلة في خمسة مواضع: اثنتان منها جاءتا في سورة الكهف:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

وثلاثة مواضع وردت في سورة الجن:

الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

والثانية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

والأخيرة ـ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

ويرى بعض العلماء الأفاضل أن التغاير في حركات بنية الكلمة في مواضعها التي وردت فيها في هذه الآيات بين (رَشَداً) و(رُشْداً) يرجع إلى

---

(27) اتفق القراء السبعة على قراءتها بتحريك الحرفين (بالفتح) ما عدا الموضع الثاني من سورة الكهف، آية: 66، فقرأه ابن كثير ونافع، عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر بخلاف بضم الراء، وسكون الشين، وقراءة أبي عمرو بتحريك الحرفين بالفتح [راجع: أبا بكر بن مجاهد (ت 324هـ): السبعة في القراءات، ص394، طبعة دار المعارف، ط2، سنة 1980م، تحقيق شوقي ضيف] أما سائر المواضع ففيها قراءات شاذة تخالف ما اتفق عليه الجمهور عزيت في الموضع إلى أبي رجاء، وفي غيره إلى الأعرج [انظر: أبا حيان الأندلسي (745هـ): تفسير البحر المحيط ج6، ص102، ج8، ص350 ـ 353، طبعة الفكر ببيروت سنة 1983م].

مراعاة التوازن الموسيقي في الفواصل، حين رجَّح بعضهم[28] قراءة (رَشَداً) بفتح الراء والشين، ليقع التوازي بينها وبين قريناتها في السياق من حيث الوزن والتقفية، لا من حيث التقفية فقط التي تحققت بالفعل بتماثل الحروف الأخيرة في هذه الفواصل المتمثلة في حرفي (الدال)، و(الألف) التي هي عوض عن التنوين، حتى يبلغ الإيقاع الموسيقي ذروته وغايته.

ونرى أن هذا التغاير في حركات بنية اللفظة القرآنية (رَشَداً) تارة بضم الراء وسكون الشين، وأخرى بتحريكها بالفتح معاً لم يكن قاصراً على إحداث أعلى درجة من الموسيقا في الفاصلة فحسب ـ كما ظن البعض ـ وإنما يرجع إلى أن سياق المعنى المراد من الله (عز وجل) هو الذي أوجب هذا التغيير في بنية الكلمة في كل موضع من هذه المواضع.

فقد سئل الإمام أبو عمرو بن العلاء عن معنى الكلمتين، فقال: (الرُّشْد) (بالضم) هو الصلاح، و(بالفتح) هو العلم. وموسى (عليه السلام) إنما طلب من الخضر (عليه السلام) العلم، وهذا في غاية الروعة والحُسْن، ألا ترى في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾، كيف أجمع على ضَمِّه، وقوله تعالى من سورة الكهف: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، وقوله تعالى ـ أيضاً ـ من سورة الكهف: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، كيف أُجمع على فتحه؟ ولكن جمهور أهل اللغة على أن الفتح والضم في (الرشد) لغتان: كالبُخْل والبَخَل، والسُّقَم والسَّقَم، والحُزْنِ والحَزَن، فيحتمل عندي أن يكون الاتفاق على فتح الحرفين الأولين، لمناسبة رؤوس الآي، وموازنتها لما قبل، ولما بعد، نحو:

(28) راجع معاني القرآن وإعرابه ج3، ص270، إعراب القرآن للنحاس ج2، ص149، 150، وإعراب القراءات السبع ج1، ص400، والسيوطي: الجامع لأحكام القرآن ج5، ص37، أبو حيان: تفسير البحر ج6، ص102، الألوسي: روح المعاني ج15 الكتب العلمية ببيروت، ب.ت. تحقيق الشيخ على محمد الصباغ، انظر أيضاً السيوطي: معترك الأقران ج1، ص29، ص211، دكتور أحمد سعد محمد: التوجيه البلاغي، ص207 ـ 208 وهامشه.

(عَجَباً وعَدَداً، وأَمَداً) فمن سكَّن فللمناسبة أيضاً، ومن فتح فإلحاقاً بالنظير، والله تعالى أعلم)[29].

ونؤكد أن هذا التغاير لم يكن فقط لإحداث الإيقاع الموسيقي فحسب، أو كما يقولون لمشاكلة رؤوس الآي، وإن كنا لا نهمل قدر الإيقاع الموسيقي في جلاء المعنى وتقويته، والإسهام في تحقيق المتعة والتأثير للمتلقي أيًّا كانت ثقافته، مع جمال الأسلوب ونصاعته، وإنما المعنى المراد من الله (عزّ وجل) هو الذي استدعى هذا التغاير، كل في مواضعه التي وقع فيها في آيات الله العليم الحكيم؛ إذ إننا نرى أن كل تغيير عن المعتاد ورد في أسلوب القرآن، هو تنبيه من الله عز وجل لنا، على معنى ما، يريد الله أن يثير به تفكيرنا، وأن يدفعنا إلى استخراجه، وكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: استيقظوا، وانتبهوا، هنا شيء مهم، غير ما سبق، أريد أن أنبهكم عليه، ولذلك قد غيرت ما هو مألوف لديكم من تعبير (والله أعلم).

(29) انظر ابن الجزري (ت833) النشر في القراءات العشر، ج2، ص213.